تمزق الروائي الراهن

بقلم محيي الدين محمد

« تحريرنا من خوف الموت ..! »

لم يكن على اندريه مالرو غير ان يقذف بهذا النداء ، ليصبح روائي العصر الواغل في شرايين الانسان الحديث ودمه ، والمكتشف لقلقه العصري ..

الانسان هو دائما ضد شيء ما ، ليستطيع على الاقل مجاراة طبيعة النمو فيه ، وليتمكن من صد تيار الابدي الذي يعيد صوغ عبوديته لاشكال عديدة من الآلهة .. ولم يكن هذا الانسان التاريخي يفرغ من معاركه ابدا ، فقد انتصر على المذلة ، والاثم والطغيان .. وقارع بمناقب الفرسان ، الكذب والتلفيق ، واللاشرف ..

كل عصر هو معركة بعينها ضد علاقة او شر ، ولكننا لكي نكتشف مثيري المعارك ، لا نستطيع ان نقيم معرفتنا على أساس نجاح أشكال معينة من الروايات القديمة ، فلا يمكن ان نحكم على (الديكاميرون)بأنها صورة لعصرها ، لا لشيء الا لانها عمل ما زال حيا ! فليس ذوق الناس ولا التاريخ يمكن ان يدل على علاقة الرواية بعصرها ..

ان رواية ما ليست جانبا من الروائي ! انها الروائي بذاته مقذوفا كل لحظة في ضمير جديد .. ومعجزة جديدة : الليل يعمق،الليل والظل وديمومة الشك .. والروائي هو النبي الذي يسجل الظلم والاحساس بعري الانسان ، مفجرا فيه الثورة والانقلاب على كل القيم التقليدية ..

للروائي بؤرتا نظر ، احداهما تجمّع الخارج كله في حرارة رغبة ، وفي لهب امنية .. والثانية تحرر الداخل وتكشف الطلاء الذهبي للخارج ، فيصبح الانسان لا ضد التقاليد .. بل بازاء الكون ..

ان تطور الرواية المستمر يوصلها الى النقطة الحرجة في تاريخها جميعه .. وهو : ما الذي حققته الرواية القديمة حتى تدّعي الرواية المعاصرة انتصارها في معارك جديدة ؟!

يستعد الروائي الراهن للاجابة عن كافة الاسئلة التي يوجهها اليه البشر المحدثون ، فيلاحظ العالم ، ويغرق في خضمه ، ممارسا للسياسة ، ومتابعا لتطور الجدل الفلسفي، وعلوم التاريخ ، والرياضيات .. انه ينبيء عن جدارته بقيادة الجماهير ، ورغبتهم المثلى في ان يكون بطلهم على دراية بكل مشاكل الكون ، ولذلك يصبح ضروريا له ان يساق مع العام ، ضد التقاليد والمدرسية ، على ان تقدم الرواية في الزمن يسمح لمعارضي هذا الشكل من اشكال الفن ان يتساءلوا عما اذا كانت التقاليد قد شجبت نتيجة لهجوم الرواية المتواصل ؟!

انني ارسم كي اسمّر خوضي في العالم فوق لوحة ، فلماذا أكتب الرواية ؟! ان كافة الفنون تتجه الى أن يصبح الله مشرقا في البشر .. ان يكونوا في الحرية .. وان يعلوا شرف الانسان وطهره ..

اما الرواية فهي تضيف الماثل الى الخيال ، فبالرغم من أن بطلها لا وجود له في هذا الشكل بالذات ، الا انه موجود وحي في كل شكل انساني .. فأخطاؤنا واحدة ، وكذلك شرورنا . انه بيننا هذا الرجل فاحذروه .. انه منقوع في سمنا المشترك .. لانه نحن !!

الرواية التقليدية تنقل احساس الروائي وروحه الى ضمير القارىء .. بيد ان القارىء حر باستمرار في ان يجرر في مهانة لا تغتفر ، حرية الروائي في الوحل ، فليس مكشوفا كعري امرأة ، هذه النفس التي تخص بطل رواية ما .. انه نفس في الداخل ، وهو الى الابد ذلك الآخر.. انه ميت بالنسبة للقارىء ، ولذلك فحرية القارىء تربط حرية البطل الميت الذي لا يستطيع الدفاع عن حضوره .

البشر يعيشون قلقين : العالم الاستجابة ، والعالم الطلسم .. ومجابهة الشكل الاول متروكة للعلم ، اما الاسرار فقد حاول الفن منذ البدء جعلها طواعيته .. بيد ان العلم يكشف المرئي والمنطقي ، ولذلك فهو موافق عليه .. اما الفن فهو يتجنب المنظور والمحسوس ، والا سقط في التقريرية ، ووصم بالفرار ..

منذ آلاف السنين والرسام يلوّن ، والنحات يشكل الصخر ، والشاعر يغني .. بيد ان الرواية هي فن هذه العصور ، وهي لذلك تختلف عن كافة الفنون التي تعالج سرية العالم، وهي لذلك ايضا تمسك اليها القلقين: الاستجابة والطلسمية فتحارب العقيدة والتقليدية ، وتغزو الخور وتسوق الحرية ، وتنكل بالدكتاتورية : انها تخوض في شرف العالم وجبنه وكبريائه .. انها ترتبط بانسان النزوع الذي يستعمل كافة الوسائل للتقدم : الحساب والحنين ، الرصاص والشعوذة .. وهي ايضا ميزة هذا العصر الذي يقف ضد سلطة الحكومات المطلقة ، والافكار المعلبة ... ان يظل الروائي سامقا .. وان يجد صداه في المجموع ، فلا بد ان يكون الروائي قريبا من الجمهور كيما يظل الوفاق بينهما مستمرا .. ولا بد ايضا للروائي أن يتخطى فهم الجمهور ليجرّ اليه القيم الفارة .

هو هذا الرعب ما يدني الفنان الساحر القديم : ان يفقد جمهوره ، وان يصبح منشدا للصم . فاذا فقد هذا الرسول الذكي اسطورة العبير التي هي اشتراك حساسية انف ، بكيمائية رائحة .. اصبحت متابعة الصراع بدون جدوى .. وهنا القلق المعذب الذي يعيشه الروائي الراهن. انه فوق المرئي لانه يحرر الداخل ، وهو في المرئي لانه ضد الخارج، ولا بد ان تضم الرواية خارجا وداخلا ليمكنها ان تنتمي الى الحاضر .. فكل بطل هو وجود ، في حين أنه العدم بالذات ، وكذلك كل جملة ، هي منطوقة ولا

منطوقة أبدا ، في الحاضر ، وأعلى منه .. ولذلك كان على الروائي ، وليس على الرسام او الشاعر ، تبعة الصـــاق المطلق بالجزئي ، الحيوي باللاحيوي ، ولهذا يقف ضد الموت ليحررنا من أسره ، وضد المجهول ، والبشاعـــة والقرف ..

كل بطل هو الدونكيشوت بالذات ، مادامت أمامـه معارك لم تنته ، ونزاعات لم تفض ، وعداوات لم تنقض : كالياييف . دون كاميللو . هودرر . سابتن . بابيت ..

انه مصير واحد ما يساقون اليه ، هو ان يشهدوا موتهم ذاته ، في هذا الحريق الوحشي الذي يدمر ســـعادتهم وأفراحهم ..

لماذا يبذلون كل هذا الجهد .؟ ولماذا لايكفون عـــن العراك ويعيشون في هدوء .؟

أتساوي الحياة كل هذا الانين والبكاء والثورات ؟!

ان الروائي الراهن يتجه الى كشف وضع الانسان في العالم ، وهو يستخدم لذلكالاالحساب ولا دقة الهندسة .. ولا الاحساس .. انه يعيد صوغ المعجزة القديمة ، التي كفر بها البشر لما صدرت عن الرسل والقديسين .! انه طعم الانسانية الى البشر الذين فقدوا مذاقهم .. كما يصبح ضروريا لهذا الفن أن يعلن خلاص الانسان مـــن الوحشية والبغض والجريمة ..

تتجسم روح الرواية الحديثة في أمريكا وفرنسا، وفيما عدا اهرنبورج وبالاسزتشي ، في الاتحاد السوفيتـــي وايطاليا ، فان الرواية في أجزاء العالم الاخرى مازالـت تناضل البدائية والاقليمية ، بدون أن يصبح في وسعها الانخراط في مأساوية الوضع الانساني ومذلته .، ولكي يتيح التحديد رؤية أدق ، يصبح على الباحث أن ينعـــم النظر في أعمال روائيي هذين القطرين ..

ففي الولايات المتحدة الامريكية ، وطن الزنوج والمصانع والاحتكارات نجد دوس باسوس ، ووليم فولكنر ، وتيسي وليامز ..! أما في فرنسا فهناك أندريه مالرو وألبيركامو .

ان فولكنر الذي امضته الحروب الداخلية ، وهزيمـة الجنوب ، والصراع الدموي بين اللونين الاسود والابيض يكشف عن سوء طوية الحضارة الحديثة ، فلا المزارع ، ولا الاحراش تستطيع أن تمنع تدخل اليد القادرة للصناعة .! ان الوثنية تعيد تركيب عقارها السحري في هذا البلـد الذي تسكنه وحوش تملك ناطحات سحب .!

ان أروع روايات فولكنر ليست (الضجة والغضب) كما يعلن النقاد ..! انها « أأبسالوم أبسالوم ..! » هذا التعقد الميكانيكي الهائل لاسرة توماس سابتن الـذي يسقط في اللعنة والخطيئة ويقبلها جميعا على أنها نفسه ، بدون أن يحاول تغطية عاره ، أو حتى عدم الاعلان عنه .! الحب الجنسي ، والدعارة ، والاغلال ، تغوص في هـذه المزرعة الكبيرة التي اسمها الجنوب ، لتصبح سدا كريها يمنع تقدم الهلاك القادم من الشمال .. احذروا المدنية !! بيد أنهم ينكصون ليقبلوا بعد ذلـك العذاب واليأس ..

صدرت الطبعة الثانية من :

البؤساء

رائعة فيكتور هيجو الخالدة

قصة الانسانية المعذبة المقهورة

قصة كل جيل وكل عصر

القصة كاملة فى مجلد واحد ضخم

نشر وتوزيع

المكتب التجارى

للطباعة والتوزيع والنشر

ثم الانتحار ..

ان فولكنر هو دوستويفسكي معاصر ، فليس الجنون فقط هو ذلك المظهر الرسمي المحبوس خلف اسوار المستشفيات العقلية والمصحات ، انهم رمز وحسب .! رمز لنا .. لجنوننا واحلامنا .. ومع ذلك فقد كانوا منا ، قبل ان يتكشف حتى الانفجار حس تجريد العالم من معناه لديهم .. والروائي العظيم لايستطيع أن يكشف عن هذا الحس المدمر الذي يعطاه أولئك الذين تحيا أعصابهم على سطح جلدهم الخارجي ..والزمن .! ان هؤلاء الابطال لا يستطيعون ان يعيشوا في زماننا العادي والا أصبحوا منطقيين جدا . فالتسلسل الروائي مفقود بالمرة ، على حين يصبح أبطال ثانويون في مراكز غاية في الاهمية .. وان ما يشغل فولكنر ليس الا العذاب المتصل ، والرعب الاخرس الذي يعيشه الزنجي والجنوبي ازاء بغض الابيض والشمالي واحتقارهما ، فالذي يبقى من كل عائلة سابتن ليس الا غلام زنجي أبله من امرأة اتخذها يوما خليلة .! هذا الغلام هو الصورة النهائية التي يحضرها فولكنر ليختم بها في مشهد لا ينسى سفالة الانسان ..

ومنذ (بينما أرقد لاموت) ١٩٣٠، و(النخلات البرية..) ١٩٣٩ ، لم تخرج لقراء الانكليزية رواية جسدت مذلة الانسان وبؤسه وحقارته ، كما فعل فولكنر ، ما خلا رواية وحيدة شديدة الاقذاع كتبها فرنون سوليفان Sullivan واسمها (سوف ابصق على قبوركم .!) ١٩٤٦ ، صور فيها وضع الزنوج المؤلم في هذه الولايات المتحدة ، بيد أن خاتمتها المزعجة وضعت حدا لما كان يمكن ان تصبح عليه صورة هذا الانتقام الوحشي ، فيما لو أضحى عقابا عاما..

والصورة الثابتة عن تينسي وليامز تشجب مشكلة الزنوج لتختار وضع البربرية في نفس هذه الولاية ، فكما أن الاسود والابيض عدوان ، فالابيض والابيض أشد عداوة .. والعلاقة في البغض الاول هي احتقار يقابله البغض ، وهما انفعالان مسببان يتأثران بأوضاع معينة ، غير أن العلاقة الثانية مجهولة وبدون سبب .! انها فقط غرابة هذا العالم الطافح بالفجاجة والحسد والجنون والتعصب ، حيث يصبح كل انسان هو الآخر .. بشارب، وبدون شارب ، كلهم يحمل نفس القلب الجائع للدم، وللقتل في هذا الكون المسكون بزرقة الاوشحة ، وزرقة العيون التي بدون معنى ، في هذه الدوامة من الزرقة : الوشم ، الازهار . المصباح . الليل ، وسفن توشك بالاقلاع .. انه عالم يضع قدمه دائما في الخطوة التالية ، أما ذهنه فهو متأخر دوما بخطوتين ..

فكيف .. كيف يمكن تحديد الاتجاه .؟!

ان الولايات الامريكية هي بلد الاشباح المصاغة في هيئة بشر ، وليست صناعتها وتقدمها التكنيكي يمنعان من وصمها بالوطن اللاانساني ، حيث ينتحر المئات لفرط ما امتلأ القلب بالاوجاع والاسى ، وحيث يقارب عدد المرضى بعقولهم ، عدد كل المرضى بكافة الاوجاع والامراض الى أي منحدر تقود الآلية والاحتكارات والحضارة الصناعية هذا البلد المسكين ؟!

!ما فرنسا فروائيها الاول (أندريه مالرو) ليس الا امتدادا للافكار المحض انسانية التي ورثها عن جيدو مونتيني، انه في الخط نفسه ، ضد كل عودة للوحشية .. ولذلك انخرط في الحزب الشيوعي الفرنسي ، ثم أعلن عدم انتسابه اليه ، واصبح (جوليا) لفرط ماعتقد في مقدرة دي جول ، وحكمته .! وفي النهاية ينادي بالعظمة ، والبطولة ، فليس الانسان السعيد سوى نفحة طيب شرقية ، وما على الغربي الا ان يزيل الصدى عن الرمح القديم والقناع الصلب ، ليصبح في خضم المعركة .!

ولكن ضد ماذا ..؟!

أيعيد من جديد مشكلة الدون كيشوت الفريدة ؟ على أن مأساة هذا الاسباني العظيم هي أننا نكتشف منذ البداية معرفته لعقم صراعه ، وهذا مايشرك مالرو ، بسير فانتس.؟ فاذا ما غافلنا رغبة النقاد في اعتبار الدون كيشوت رواية تمثل الحماقة ، والرغبة في مصارعة أي شيء..، وأبدلناها بتمثيل كفاح الانسان ضد الموت ، لاصبح سير فانتس ومالرو واحدا .. فأي فرق نستطيع تبينه بين واحد من أبطال مالرو ، ، برغبته الحانقة ، وبين الرغبة المجنونة التي بلا حدود ، وهي بلاء الفارس الاسباني ؟!..

لقد اصاب مالرو هدوء نبيل ، فأضفى على كتبه عظمة جديرة بالاعجاب لم تصل اليها كتبه السابقة المحمومة الثائرة الا نادرا ★، وذلك لانه بدأ يدرك باع عدوه ، ومقدار خطره . انه يصبح دليل معركة كانت الى وقت قريب غير متكافئة ، وضد ماذا ؟ ضد اقصى حقيقة بلي بها الانسان : الموت ! ليس الموت الميتافيزيقي العام ، بل موتي أنا الخاص ، وقد قهره مرتين ، مرة عندما رفض الموت المسيحي ، والمرة الاخرى عندما دعي لان يطلق كل فرد موته الخاص ، بدون أن يفقد توازنه ، فالبطولة هي أسمى ما في الانسان ، لانها شجاعة فرد ما .!

ويبقى البير كامو ليعلن أن الانسان يولد غريبا ، وهذه السمة سوف تصبح مأساته وذنبه الوحيد .. ومن أجل ذلك يرتبط كامو بخط كافكا الذي يعجب به ، وان كان (للغريب) طابع (المحاكمة) وطعمها الشاذ ، فليس ذلك لان كامو هو نسخة أخرى من كافكا .. بل لان وحدة الرؤية لديهما معا تكشف عن الذي يتفاداه الروائيون الآخرون بدعوى انتمائه للفلسفة والميتافيزيقا ..

وان هذه الرغبة التي هيأت الاذهان لهذا الارتباط بين الرؤية وما بعد الطبيعة ، تظل بعد ذلك واضحة في معظم رواياته ، (فتارو) غريب عن وهران ، وسيظل غريبا ، مادام حس الملاحظة المميت يهلكه كما فعل (بروكانتان) من قبل ، وحس الغربة هذا سيظل عذاب كامو المقلق ، مادام يتمثل تعس الانسان وتخبطه ، وما ظل يرى الكون كله أبكم ، وفي غير مانور .! وهذه الطلعة التي تبدو وكأنها بتأثير باسكال ، ستصبح خلة هذا الروائي الممتاز الذي

(★) بحسب تعبير روجيه كايوا

يصيبه الهلع نفسه ، الذي أصاب مكتشف عظمة الانسان وبؤسه .! وهذا الحس لايؤلف وحده هذه الرؤية العميقة لتناقضات الحياة ، فليس المهم هو أن نكشف عن الطلاء الزائف الذي يكسو به البشر علاقاتهم ونفوسهم ، بقدر ماهو أن نعيدهم الى البراءة .. ولذلك يرتبط كامو على الرغم منه ، بفلسفة العصور الراهنة التي ترفض كل ميثولوجيا ، لتنظم من جديد دراساتها من علم الانسان ..

الروائيون المعاصرون فى قلب ازمة يحسبون الا فكاك لهم منها الا بطريقين : العودة الى الحكاية القديمة .. أو الانغمار في الشائع ؛ ولذلك يمنون بالهزيمة ، وينتحرون بطول جدران الفشل ، انهم يحكون متاعبهم ويعيدون ترديد النغمة القديمة للفقر والامراض ، مشكلين منظورات رثة من جديد ، أدماها فرط التحديق بها ، وأصبحت رمة سمجة .

وقد افضى هذا الموقف العصيب الى أن يكشف الروائي الاصيل مكمن الداء .. فان كل هذه المعارك التي تهدف الى الغاء الفقر والاحتكار ، والتي كانت هدف الرواية ، لا توصل الا لخلق وعي بمشكلة الطبقات .. وفي النهاية تتولى الدولة او النظام عبء وضع حد لفوضى الاوضاع المادية ..!

وهل يمكن الادعاء بأن (للمساكين) أو (للبؤساء) لدوستويفسكي وهوجو ، أثرا غير زيادة الوعي بالمشكلة..؟!

ان الروائي الراهن يعاني الى جانب اكتسابه فهما لكل شريحة فكرية ، وانتسابه الى قرنه ، حسا عميقا بالتمزق، يغرقه في الوحدة ثم ينشره في العام .. بدون أن يستطيع البقاء لحظة واحدة في التوحد ..

انه يعرف فرط استحالة النصر ، لان اعداءه خالدون، انهم الموت والوحشية وحس الغربة .. ولكنه لايبالي ، فازاء كل هذه المعارك يصبح الظفر نتيجة سلبية ..! فأن نعرف كيف نموت ، وان نعيش فى العري بصفاء اكثر ... والا ندع غربتنا تخوننا .. هي ظفر الروائي الراهن .. انها تبدو بسيطة وعادية هذه البطولات الواهية ، لدرجة أننا نخمن قدرتنا على شجبها والاستمرار في حياتنا

بيد أن أبسط أغنية ، هي دوما أحبها الى القلب ، ولذلك ستبقى الى الابد هذه الرغبة المجنونة في الرحيل الى جزر مجهولة .. وهذا الحنين المقدس في قبول اشواق سرية وعذابات جديدة ..

وكما يحدس النبي بالنقطة الرجراجة التي تصل العدم بالوجود ، هذه النقطة الساكنة والمتحركة ، والتي هي الابد كله .. يجتاز الروائي كل احلامنا التي تجمده في مسافتنا الضيقة ، ليمكنه ان ينشر التمزق الذي يعانيه البشر الآن.

فكما ان كفا توسد رأس محتضر ، أو بسمة في عينيه ، تهبانه مطلق الصفاء في هذه اللحظة الميتة ، فان شجاعاتنا الصغيرة ، سوف تعرف كيف تجابه مرارة أيام لاحب فيها ولا أمل ...

القاهرة ـ **محي الدين محمد**

روائع المسرح العالمي

سلسلة كتب تنتظم اروع المسرحيات العالمية وأشهرها وتتناول من القضايا ما يهم كل مثقف عربي

(يشرف على ترجمتها الدكتور سهيل ادريس)

صدر منها

١	الايدي القذرة (نفدت)	تأليف	جان بول سارتر
٢	بستان الكرز	«	انطوان تشيخوف
٣	الحقيقة ماتت	«	عمانوئيل روبلس
٤	كانديدا	«	برناردشو
٥	الافواه اللامجدية	«	سيمون دوبوفوار
٦	البلور المحرق	«	تشارلز مورغان
٧	ثمن الحرية	«	عمانوئيل روبلس
٨	العادلون	«	البير كامو
٩	موتى بلا قبور	«	جان بول سارتر

قريبا

١٠	رؤوس الآخرين	«	مارسيل ايميه

تطلب هذه السلسلة من دار العلم للملايين ودار الآداب ـ بيروت